بين شاعر ومصور

مشروع زواج

بقلم محمد روحي فيصل

جلس الصديقان يتسامران بعد العشاء ، وقد انبسطت أعضاؤهما فرق الأرائك الناعمة الوثيرة ، يرسلانها على هواهما ، ثم يعبثان بما ينشأ عن دخان التبغ في الفضاء من متعرجات وأشكال . . .

وتلك ساعة حلوة عذبة ، تنشرح لها الصدور ، وتشرق فيها الوجوه ، وتنطلق فيها الألسن بالكلام ، وتجيش فيها القلوب بنوازي الحياة وشتى العواطف والأهواء ، وكلها تنزع الى الظهور والافصاح ، وتطلب السفور والاعلان من غير التواء ولا تحجب . وكان ضوء المصباح نحيلا شاحباً ، يضطرب كالمحتضر على جدران الغرفة الرحبة ، ثم لا يكاد يبين ما يزينها : من طنافس مزركشة وأسلحة مفضضة . إنما يبرز الى النصف بين الظلال الفاحمة رسم امرأة فتية قد اتخذت وضعاً مائلا نحو الأمام كأنما هي تتسمع صاغية ، وضاحة المحيا ، صبوحة الوجه في عينين زاهيتين ، وفم مطبق مرهوب تطفو عليه ابتسامة حيرى ذات معان !! وكان الكرسي الصغير والنعال الدقيقة المبعثرة دلنا وههنا توحي للخاطر بوجود طفل وليد في الدار ، ومن الغرفة المجاورة كانت تنبعث الحين بعد الحين أنغام شجية ، وموسيقى متسقة منسجمة ، إذ تهدهد الأم الرؤوم فتاها كي ينام . فيمتلئ الجو بالنشيد روعة وجمالا ، ويشيع فيه عبير اللذة والهناء ، فيصيح الشاعر مهتاجاً :

« لك الحق يا أخي أن تتزوج وأن تنعم بالزواج ، فليست سبل السعادة كثيرة متشعبة . إنها هنا على مقربة منا . . . يربك التمس لي فتاة أتزوجها ! »

المصور — أنا التمس لك فتاة ؟ ! تالله لن أخوض غمار ذلك أبداً

الشاعر — ولماذا ؟

المصور — تسألني لماذا ؟ فاعلم أن أصحاب الفن ما ينبغي أن يتزوجوا ، وما ينبغي أن يكون لهم في الحياة شركاء

الشاعر — يا للعجب ! تقول ذلك ولا تخشى أن يغور نور المصباح وتنقض على رأسك الجدران . إن حياتك الزوجية نصب ماثل للسعادة المنشودة والنعيم المقيم ! ومثلك فيما تزعم كمثل أولئك الأغنياء المترفين يكنزون المال ويضاعفون الثروة من آلام الآخرين وشقاء العاملين ، ويستطيبون نار الشتاء حين يذكرون البؤساء الذين لا مأوى لهم ولا نار عندهم !!

المصور — قل ما تشاء ، شبهي بما تهوى ، فلن أكون لك الا الصديق الوفي النصوح الذي يرى الخطر فلا يقف مكتوف اليدين متبلد الحس ، جامد الشعور

الشاعر — أراك تسرف في كره الزواج اسرافا كبيراً مع أني استروح أريج السعادة هنا كما أتنفس الهواء الطلق في الحقول !

المصور — نعم إني سعيد كما تقول ، أحب زوجتي حبا جما وأرى فيها وفي ولدي كل جمال الوجود والحياة . لقد كان زواجي مرفأ هانئا آمنا تحفه المياه الوادعة ، أقلي وما زال يقلني الى ما أصبو اليه من مواطن الراحة والسلام . وإنتاجي أحسب وسما ، ولعل خير رسومي قد أبدعتها في عهد الزواج . . .

الشاعر — وما بالك تنأى بي اذن عن عالم السعادة ؟

المصور — ها . . . إن السعادة التي أنعم في أحضانها انما هي أعجوبة من أعاجيب القدر ، لا يسمح بها الزمان ، ولا تجود بها الطبيعة على الناس جميعا . وأنا كلما أدركت ماهية الزواج فرحت لهذا الحظ الضاحك الذي حباني به الاله الكريم . فحالي تشبه حال من فطن للهوة السحيقة المخيفة بعد أن اجتازها فاعجب بشجاعته ومضاء همته ، وشكر الله على سلامته !

الشاعر — وما هي مساوىء الزواج يا أخي ؟

المصور — أولى المساوىء وأعظمها أن الاسرة تستهلك المواهب وتميت الأبداع ، وهذا أمره وجاهته بلا ريب في حياة الفن الجميل . يكون الزواج استجابة طبيعية للغريزة الكامنة الحمراء ، وقد يعلي شأن بعض الرجال ويوسع إطار خبرتهم ، ويدنيهم من الأرض والمدنية ، ثم لقد يكون ضرورة من ضرورات المهنة والمعاش . أما الفنانون من شعراء ومصورين ونحاتين وموسيقيين لا يتزوجون بالناس ولا يدخلون المجتمع ، وانما يعيشون على حافة الحياة يرقبونها عن كثب ويتأملون خطوطها والوانها ثم يسجلون مشاهداتهم ويبدعون آثارهم . فالمتزوجون فيهم على هذا ينبغي ان يكونوا قلائل نادرين

هذا « ديلاكروا » العظيم الذى تعجب به وتهيم برسومه قضى عمره الطويل أعزب يدب وحيداً بين جدران بيته . لقد خطرت البارحة على « شانروزاى » ومتعت النفس بحديقتها النضرة المتزهرة . إنه ظل عشرين عاماً يغدو بها ويروح لا مؤنس له غير هديل الحمام وتغريد العنادل . ترى ماقيمة إنتاجه لو كان أباً يهتم للكسب والأولاد ، يربيهم ويعنى بتعليمهم ، وقد يمرضون فيسهر على مداواتهم ولايتام ؟ !

الشاعر — ذكرت لى ديلاكروا مثلا ، فهلا ذكرت فكتور هوجو ... أتعتقد ان شؤون الاسرة قلت ملكاته وأخذت عليه سبيل الانتاج الأدبى الخالد ؟

المصور — انا لاأرى ذلك ابداً ، ولكن الفنانين المتزوجين ليسوا كلهم عباقرة تهضم الفن والعائلة قوامهم النفسية ...

الشاعر — ما عجبت لشىء عجبى لحكاية متزوج سعيد لا يحب لغيره الا العزوبة والوحدة !

المصور — ان الحكم الذى أضعه بين يديك ليس مصدره حياتى الخاصة ! إنما كونته عندى تلك الشرور القائمة فى كثير من الأسر التى عرفتها واتصلت بها . والباعث على الشرور التباين العقلى والنفسى بين الفنان وزوجه . أتذكر ذلك النحات الماهر الذى ترك الأهل والوطن وهاجر الى حيث لا يدرى مصيره أحد من الخلق ؟ لقد كان يعبد مهنته ويفنى فيها وقته وحواسه ، ولكن زوجه الذكية الحسناء كانت تريده على أن يحيط حسنها بهالة من الثروة والجاه ، فطفق النحات يكد ويعمل طوال عشر سنين ، وربما تدفع به وبنفسها فى بعض الأماسى الى الابهاء الرفيعة الارستقراطية تدخلهن واحدة بعد أخرى وتذيع فيهن مالها وبهاءها ، ولقد تقطع عليه عمله فى النهار لتزور ويزور صويحباتها ، ثم يرتادان معا أماكن اللهو ومجالس الأنس . ستقول إنه يستطيع لو شاء ألا يحقق مناها ، ولكن الزواج فى طبيعته يضطرنا إلى أن نؤثر جانب الرفق واللين على جانب الشدة والعنف . لاأنكر أن هواء البيت انما تتنفسه على الرغم منا ، ولو لم يكن فيه ذرة من القوة والمثل الأعلى لثقل علينا ضغطه وكثافته . ان الفنان ليودع فى آثاره كل مايملك من جهد وفكر ، ويجرد لهذا الغرض العزم والارادة ، ولكنه يقف من توافه الحياة موقف العاجز الضعيف ، يلين لزوجته حتى المهانة ، ويخنس لسلطانها حتى العبودية ، تأمره فيمضى فى صمت وتقول فيفعل فى هدوء . على انه قد يثور اذا اطرد الاستبداد واشتدت العبودية ، فهذه العصائب المانعة للنور ان هى عاقته عن الانتاج الفنى لايلبث ان يطرحها فى نفور كما فعل المثال المهاجر ، وقد حزنت الزوجة لهذه الهجرة الفجائية فتساءلت ، أأكون انا الجانية عليه ؟ هل من إساءة وخزته بها ؟ ، بلى ! انها لم تعمد الى الاساءة عمداً ، وانما جرت مع طبيعتها الطائشة الغريرة دون ان تفقه زوجها الحساس . فليس يكفى ان تكون المرأة ذكية حصيفة لتصلح شريكة الفنان فى الحياة ، بل ينبغى لها فى النزعات نكران الذات والتضحية بالنفس ، وهذا ما لا تجده عند امرأة جاهلة بهرتها لذاذات الدنيا وغشيتها الأنانية ! ! إنما يرغب النساء أن يكن رشيقات ساحرات ، وأن يتزوجن وجيه القوم كى يظهرن الى جنبه متأبطات ذراعه . فأما الفنان الصناع فلا يجد متسعا من الوقت حتى يتبرج محتالا كما يتبرجن محتالات فخورات ، أرأيت كيف تشق الأسر ويتناها الألم ؟ أعرفت كيف يسقط الزوج ضحية الجلاد الأعظم ... وبالأمس زرت « دار حنى » الموسيقار وكان يسمر مع خواته الكثر ، فطلبوا اليه فيما طلبوا أن يعزف على البيان ، فلما رجع لحنا سائغا طرب له الحاضرون وصفقوا أما تصفيق ، ولكن زوجته مالبثت أن شرعت تتحدث فى خفوت ، فما زال صوتها يعلو حتى ملأ الغرفة وشغل الناس ، فقطع الموسيقار لحنه ثم التفت إلى وهمس فى أذنى « هكذا تصنع معى على الدوام . انها لاتطرب للموسيقى . ! »

الشاعر — سهوت عن أمر جليل . إن الزواج يجلب الأنس ويطرد الوحشة والفراغ . وفى الحياة لحظات خطرة هى لحظات الخور والملال ، يتشاءم فيها الفنان ويشك فى نفسه وفى قيمة فنه ، فالمتزوج انما يرى بقربه قلبا حبيبا يبثه أشجانه وشكوكه . والطفل ؟ هذه الابتسامة البريئة التى تتألق على وجهه الغض ، أليست تعزى الشيخ وتجدد شبابه ، وكل ما يخسره الفنانون يربحه ابناؤهم من بعدهم . فهذه الشعرات البيضاء التى تتساقط فى المشيب يرونها مرتع سوداء متجعدة على رأس مستدير بديع

المصور — وكيف يستطيع الشيخ الواهن إطعام الطفل الصغير ؟

الشاعر — ..... وعلى كل حال فالفنان انما خلقه الله للزواج قبل ان يخلقه للفن ، فاذا لم يتزوج كان فى الدنيا كالمسافر الجواب قد أتعبه التشرد فسكن الى غرفة من غرف الفندق كتبت عليها هذه العبارة المبتذلة « للايجار ليلة أو شهر »